يتعلق بالدرجة الاولى ببنية المجتمع العربي ، بل ذلك المدلول هو ، بالعكس الذي يساعد بقوة هذه البنية على التبلور دون ان يكون رغم ذلك ، السبب الاولي لهذا التكون في طبقات » ام نحن بحاجة الى تحديد اكثر ، والى الذهاب عميقا في البحث عن العلاقات داخل بنية العلاقة الكولونيالية. هذه العلاقات التي تقوم بعملية تدمير اقتصادية وايديولوجية للمجتمع المستعمر . وعلينا ان نبحث من خلال الربط بين هذين المستويين عن اجوبة لتساؤلاتنا . اي ان عملية الغزو الاقتصادية الايديولوجية تخلف عبر ارتطامها ببنى المجتمع المستعمر اجوبة هذا المجتمع الايديولوجية والطبقات التي تستطيع ان تحمل هذه الاجابات ؟

اذا كان تساؤلنا صحيحا فان الانفاني يجب ان يوضع بوصفه ابا للمدارس الثلاث في هذا السياق وبالتالي لا يمكن فهمه بمعزل عن تصوره للسقوط التراجيدي للسلطنة العثمانية ، باعتباره اعظم مصلحيها وآخر المدافعين عنها برؤية حضارية . يظهر العروي في تقويمه لعملية البحث العربي عن الاصالة مبلغ التداخل الايديولوجي الذي يفرضه الغرب . فمحمد عبده يصبح لحظة في وعي الغرب نفسه ، باعتباره جزءا من عملية الالتفاف الغربية . والرجالات الثلاثة يصبحون في الواقع نقطة التقاطع التاريخية بين وعي الغرب لذاته ووعي العرب لذاتهم .

٢ ــ الاستمرار التاريخي . يطرح نفسه امام جدلية التحدي هذه وانعكاساتها . فالتاريخ يصبح خادما للاهوت . او بالمقابل تتقطع اوصاله بحثا عن استمرارية تاريخية ترفض كل شكل من اشكال الانقطاع عن التاريخ العربي . هذا الموقف تقابله الثقافة القومية التي تؤقنم التاريخ وتغرف في ثقافة استهلاك وتمتع وفي ثقافة انشطارية تصل بها الى الانا التي تتفحص اللغة . وتصير اللغة وسيلة لالتقاط استمرارية تاريخية تتزايد وهميتها ؟ في المقابل فان التاريخ الوضعي — اي مدارس الاستشراق ــ تفشل هي الاخرى في صياغة هذا الماضي. فمدرسة غولدزيهر تكتفي بالتاريخ السلبي ومدرسة جيب ــ النقد التحليلي ، تحاول ايهامنا باستطاعة الاقتصار على هذا النقد . البحث عن الاستمرار التاريخي في ظل هذا التصور في الوعي، اي في ظل عدم القدرة على صياغة منهج تاريخي انتقادي ، يبقى وكأنه يسير خلف سراب استمرارية تاريخية جاءت الدولة القومية لتقطعه نهائيا .

هنا نود ان نطرح سؤالين : أ ــ ان الانهيار العثماني قد خلق عمليا تقويما جديدا للماضي التاريخي العربي . هذا التقويم حافظ في شكليه الليبرالي والتقني على مظاهر الاستمرارية التاريخية من خلال تركيزه على جوانب محددة من التاريخ العربي . هذا المظهر الاستمراري يحمل في داخله محاولة لاستمرار الماضي بشكل جديد . فالى اي حد نستطيع ان نؤكد على ظاهرة الاستمرار هذه في ظل عدم قدرة الايديولوجية العربية على تأكيد الانقطاع . وهل الدولة القومية تستطيع على المستوى الايديولوجي ان تؤكده في غمرة عزلتها الجماهيرية بحكم فشلها الموضوعي في تحقيق شعارها الرئيسي التبرجز (بمعناه التقدمي) ؟ اذا سلمنا بفرضية فشل الدولة القومية فما هو البديل العملي الذي يستطيع ان يتصدى لهذه المهمة ؟
ب ــ يمر العروي بسرعة على ظاهرة اللغة . رغم تحليله النافذ لاقنمتها وعبادتها يبقى السؤال مطروحا : فالنماذج الثلاثة الشيخ والليبرالي وداعية التقنية ، لم تستطع ان تمس اللغة . ان تطورها باتجاه اكثر تحررية . فلماذا ؟ وهل الطابع الميتافيزيقي الذي للغة العربية يمكن تجاوزه عبر وعي الدولة القومية ، ام انه بحاجة الى وعي من نمط مختلف ؟

٣ ــ في داخل الدولة القومية هنالك منطقان : المنطق الاول هو منطق العمل والنشاط ، المنطق التقني ، والمنطق الثاني هو منطق الفكر : الاصالة . والتعارض بين هذين المنطقين يبدو واضحا . فهل من سبيل الى ازالة هذا التعارض. النزعة الوضعية تكشف عن حدودها بسرعة . فهي تدعو الى محاكمة الماضي ثم تبين استحالة هذه المحاكمة . لان هذه المحاكمة تعني التنكر الكامل للماضي كما عند جيب . الماضي لا يعود موضوعا قابلا للتحليل باعتباره واقعا جامدا ومندرجا في الحاضر . من هنا استحالة الوصول الى المعادلة الصحيحة . الوصفية الغربية تحلل مجتمعا معطى والمجتمع العربي يعيش في غمرة تكونه . من هنا تأخذ الدولة القومية الوضعية بوصفها وصفات للعمل وليس بوصفها طريقة لفهم الذات .

في المقابل تبرز النزعة الماركسية الموضوعية كما يسميها العروي . انها المحصلة المنطقية لهاجس التقدم والعمل في الدولة القومية . الماركسية هنا تصبح وسيلة للتقدم . نتيجة وليست طريقة